

## ملاحم الرومنسية في شعر ابن الرومي

محمود حيدري<sup>١\*</sup>، حسين قائمي أصل<sup>٢</sup>

١. أستاذ مشارك، قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة ياسوج

٢. أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة ياسوج

(تاريخ الاستلام: ٢٠١٥/٩/١٣ : تاريخ القبول: ٢٠١٦/٢/٢)

### المُلخَص

نعني بالمدسة الرومنطيقية وملاحمها مدسة وجدانية غنائية أعلنت حربا عوانا ضد الكلاسيكيين وتغنوا عن آلامهم وأحاسيسهم نتيجة خيبة آمالهم في المجتمع ورؤية ما لم يوافق وآرائهم. هذا المقال امتداد لقراءات جديدة في التراث الشعري العربي ويسعى أن يلتمس بعض خصائص الحركة الرومنطيقية في الأدب العربي القديم، فلهذا يرى أن ابن الرومي أقرب الشعراء العرب القدامى إلى المدسة الرومنطيقية. تكمن أهمية هذا البحث في الكشف عن جذور المدارس الأدبية الحديثة في الأدب العربي القديم؛ واعتمادا على المنهج الوصفي التحليلي، وصل البحث إلى هذه النتيجة أن ظاهرة الرومنسية ليست ظاهرة جديدة على الأدب العربي؛ بل هذه المدسة الحديثة لها آثارها الواضحة في التراث العربي القديم وإن كانت التسمية جديدة؛ فللمنموذج أن الظروف الاجتماعية التي حدثت ابن الرومي إلى الشعر الرومنسي هي في الغالب نفس الظروف التي كانت سائدة على مجتمع الرومانسيين الجدد مثل الفشل في الحب والفرار عن عسف المجتمع. ومن النتائج الأخرى لهذه الدراسة هي تبين مظاهر الرومنطيقية في شعر ابن الرومي، التي تتجلى في اللجوء إلى الطبيعة والإمتزاج بها والتعبير عن الأحزان والهموم والوحشة والإنفراد وكل هذا صدى لنفسية الشاعر المتبرمة من الناس والمجتمع والفرار منهم ويعد من أبرز ميزات شعره التي تتناسب والحركة الرومنطيقية الحديثة. وأخيرا تشير الدراسة إلى أن الشعر العربي القديم بحاجة ماسة إلى قراءات جديدة تواكب هذا الشعر مع المعطيات النقدية الجديدة مادام لم تخرج هذه القراءات عن جادة الصواب.

### الكلمات الرئيسية

الرومنطيقية، ابن الرومي، شعر الطبيعة، الشعر الوجداني.

## مقدمة

إنّ قراءة التراث من منظار النقد الجديد تعطينا فكرة جديدة عن رؤيتنا إلى المناهج النقدية الحديثة وتصف أبعاد العلاقة التي تربط القاريء المعاصر بالتراث العربي. ندرك أهمية الموضوع عندما يقول الناقد جابر عصفور «وبقدر ما كنت أدرك أنّ الإلحاح على قراءة التراث هو الوجه الآخر من الإلحاح على قراءة الواقع أو الحاضر، فقد كنت أزداد اقتناعاً أنّه لا توجد قراءة بريئة أو محايدة للتراث» (عصفور، ١٩٩١: ٥).

بالنسبة إلى الرومنسية في التراث العربي؛ فقد أشار النقاد إلى أنّ الشعر العربي وجداني المنزع ولهذا كان أكثره ذا طابع رومني. يرى إحسان عباس أنّ العصر الأموي أوضح العصور رومنطيقية لكثرة الشعراء البكائين والغزليين العذريين (عباس، ١٩٩٥: ٥٠). ويعتقد إيليا الحاوي أنّ روح الشعر كانت في الغالب روحاً رومنية؛ بمعنى أنّ الإنفعال كان يزخر فيه وكانت التجارب في معظمها تجربة رومنية خالصة (الحاوي، ١٩٩٨: ١١١). وعلى حدّ قول آخر فإنّ المدرسة الرومنطيقية طريقة الأدب العربي ومدرسته الكبرى (فيصل، ١٣٦٥: ٧٤٤).

من بين هؤلاء الأعلام الذين شعرهم بصلة على هذه المدرسة الرومنطيقية هو ابن الرومي الشاعر العباسي العملاق، الذي أحبّ الطبيعة وقُدّسها والتجأ إليها وسكب نزعاته وروحه عليها ورسم لنا لوحات رائعة وخالدة بقوة خياله حيث نلمس بعض السمات الرومنسية جلية في أشعاره حتى قيل بأنّه أحسّ بروح الطبيعة أكثر من سواه (الحاوي، ١٩٩٨: ١٢٢). ويقرنه بعض النقاد بشعراء الرومانسية الذين انحرفوا عن المدرسة الكلاسيكية وهرعوا إلى الطبيعة، قائلاً إنّ «ابن الرومي أقرب شعرائنا القدامى إلى واقع المدرسة الرومنطيقية الحديثة، وإن كان من اختلاف بينه وبينهم» (الحرّ، ١٩٩٢: ١٠١).

في هذا المقال نبدأ بحديثنا عن المدرسة الرومنطيقية وسماتها ثمّ نشير إشارة وجيزة إلى حياة شاعرنا لكي نلمّ على جوانب من حياته أثرت على رومنطيقيته وأخيراً نبحت عن الملامح الرومنسية في شعره ممثلة في هذه المحاور الخمسة: ١. الطبيعة واللجوء إليها والإمتزاج بها ٢. التعبير عن الأحزان والهموم ٣. الوحدة والإنفراد والدخول في عالم الذات والإعتزال عن الحياة ٤. الحبّ ٥. التخيل باعتباره أقوى سمات الرومنسيين.

أسئلة البحث:

هذا البحث يتمحور حول عدة أسئلة رئيسية ومن أهمها:

- هل يمكن إقامة علاقة بين شعر ابن الرومي في وصف الطبيعة وملاحح المدرسة الرومنطيقية الحديثة؟

- ما هو أهم الميزات التي جعلت وصف الطبيعة عند ابن الرومي في قمة الشعر العربي الذي وصل إلينا حول وصف الطبيعة؟

- كيف يساعدنا قراءة الشعر العربي القديم من منظور النقد المعاصر على فهم المعاني الجديدة للبنية الشعرية التحتية؟

أهداف البحث:

إنّ الهدف الرئيسي في هذا المقال هو وضع منهج جديد أمام قارئ الشعر العربي وقد جعلنا شعر الطبيعة عند ابن الرومي كنموذج لهذا المنهج؛ وللوصول إلى هذا الهدف اخترنا المدرسة الرومنطيقية وأهم أسسها إطاراً عاماً شاملاً للبحث حتى نبين معان جديدة في شعر ابن الرومي.

خلفية البحث:

هناك بحوث عدّة درست شخصية الشاعر وشعره من زوايا مختلفة مثلما فعلت مرضيه آباد (١٣٩٣هـ) ودرست «الموسيقى الداخلية في شعر ابن الرومي» و«مظاهر الفكر في شعر ابن الرومي» (١٣٩٢هـ) وكتبت كبرى روشنفكر ودانش محمدي (١٣٩١هـ) مقالة عنوانها «قصيدة ابن الرومي في رثاء ولده؛ دراسه دلاليه» وكتب علي پيراني شال وجواد پناهي (١٣٩٤هـ) «الشخصية الكاريكاتيرية عند ابن الرومي» ولكن ممّا كتب في هذا المجال والذي له صلة ببحثنا، مقال كتبه الباحثة كبرى روشنفكر (١٣٨٩هـ) عنوانه «الطبيعة الحية في شعر ابن الرومي» في مجلة العلوم الإنسانية ودرست الباحثة فيه شعر الطبيعة ومظاهرها في شعر الشاعر. كما أنّه لإيليا الحاوي كتاب حول ابن الرومي، أشار فيه إلى طبيعة الشاعر الرومنسية وهناك مقال آخر عنوانه المدينة الفاضلة في مدائح ابن الرومي؛ (١٣٨٩هـ) «جامعه آرمانی با تکیه بر مدائح ابن رومی» الذي درس الكتاب المدينة الفاضلة في مدائح الشاعر. إضافة الى ما ذكرناه، هناك بعض الكتب المؤلفة حول ابن الرومي ودراسة شعره في

أغراضه العامّة وتحليلها من مواقف شتى وقد أشرنا إلى كل ذلك في فهرس المصادر ولكن ما يميّز هذه المقالة هي رؤيتها الحديثة إلى شعر ابن الرومي من منظار نقدي معاصر وهذا هو ما لم نجده في الدراسات السابقة.

### لمحة عن حياة ابن الرومي وشعره

من الضروري أن نقدّم هنا بعض المعلومات الهامّة حول ملامح شخصية ابن الرومي وأحداث حياته بأسلوب سهل موجز يخدم بحثنا عن خصائص شعره الوجداني كما جعلناه تمهيداً للدخول في صلب المقالة. فقد ولد ابن الرومي من أب يوناني وأم فارسية ولكنّ الشاعر لم يكد يعرف والده، إذ يبدو أنه توفي وهو طفل (الحاوي، ١٩٨٦: ٩). ثمّ فجع بموت أمه وموت أخيه الوحيد وهكذا «توالى المصائب والفجائع الكثيرة على الشاعر فيبدو أن القدر لم يدعه واختطف أعزائه عليه واحداً تلو الآخر فالشاعر كانت له أخت ماتت قبل أمه» (العقاد، ١٩٦٨: ٩٣؛ الحاوي، ١٩٥٩: ٣١). فقد رزق ابن الرومي ثلاثة أبناء ماتوا جميعهم في حياته وورثاهم الشاعر رثاء حاراً وما لبث حتى لحقت زوجته بأبنائه (العقاد، ١٩٦٨: ٩٥-٩٩). يبدو أن ابن الرومي لم يتزوَّج بعد فقدته زوجته وأبنائه بل عاش منفرداً حتى «مات مسموماً على يد وزير المعتضد» (ابن خلكان، ١٩٧٠: ٣٦١/٣). هذه المآسي التي لازمت ابن الرومي طوال حياته كانت ذا أثر بالغ في تغيير مزاجه وأخلاقه ممّا جعله يعيش منفرداً، باكياً، شاكياً.

إضافة إلى ما حلّ بالشاعر من المصائب والنكبات فإنّه كان يعاني أيضاً من بعض الصفات الجسمانية، فهكذا وصفه المؤرّخون بأنّه "كان صغير الرأس مستدير أعلاه، أبيض الوجه، يخالط لونه شحوب في بعض الأحيان... وبادر إليه الصلع والشيب في شبابه. وأدركته الشيخوخة الباكرة، فاعتلّ جسمه وضعف نظره وسمعته ولم يكن قوي البنية في شباب ولا شيخوخة... وكان إذا مشى اختلج في مشيته، ولاح للناظر كأنّه يدور على نفسه أو يغربل لاختلال اعصابه واضطراب أعضائه" (العقاد، ١٩٦٨: ١١٤).

هذه الصفات الجسمانية والذاتية اللتين ذكرناهما بالإيجاز كان لهما أثر مدهش في شعر ابن الرومي وقد تغلّب على شعره سمات من تلك النفسية، ومن ثمّ أبدع الشاعر في قصائده الوصفية كما أنّ في الوقت نفسه خلق شعراً وجدانياً رائعاً.

كان ابن الرومي شديد النفور من الحياة والمجتمع لأنّه قد عاش في عصر كلّه دسائس ومؤامرات ومخاطر، لا بقاء فيه إلا للقوي ولم يكن بإمكانه أن يلائم هذا المجتمع ويصانع مع

أهله. ولم يكن حظَّ ابن الرومي عند الحكَّام والممدوحين بأحسن من حظِّه عند القضاء والقدر ولم يرَ منهم إلا الجفاء والإعراض وقصَّروا في عطائه فتارت ثأرتة:

أيستُ من دهري ومن أهليه      فليس منهم أحدٌ يرضى  
إن رمتُ مدحاً لم أجد أهلهُ      أو رمتُ هجواً لم أجد عرضاً

(ابن الرومي، ١٩٧٤: ١٤٢١/٤)

وشعر باليأس والإحباط فلذا يشكو من دهره ومن أناس لا يقدرونه حقَّ تقديره:

دهرٌ علا قدرُ الوضيع بهِ      وهوى الشريف يحطُّه شرفه  
كالبحر يرسبُ فيه لؤلؤه      سفلا وتطفو فوقه جيفه

(ابن الرومي، ١٩٧٤: ١٥٧١/٤)

«ومن الغريب أن ابن الرومي لم يكن يستطيع أن يبقى على علاقة حسنة بوزير أو بابن وزير، فقد كان يكفي كلَّ منهما الأ ينفذ إليه الجائزة أو يطلُّ منها، فإذا هو خصم لدود، وإذا هو يسئلُ لسانه عليه يبيري شعره سهاماً مدمية» (ضيف، ١٩٩٦: ٣٥٠)، وكثيراً يشعر بالغبن ويرى نفسه مضيعاً في زمانه:

أتراني دونَ الأولى بلغوا الآ      مال من شرطةٍ ومن كُتابِ

(ابن الرومي، ١٩٧٤: ٢٨٢/١)

وأخيراً نشير إلى فشله في حبِّه ونفور الحسنات والحبوبات عنه لدمامة وجهه وفقره ومن أبرز هؤلاء هي "وحيد" المغنّية التي تيمت الشاعر بحبِّها:

يا خليلي تيمّنتني وحييدُ      فقؤادي بها معنّي عميدُ

(ابن الرومي، ١٩٧٤: ٧٦٢/٢)

فحظُّه منها البكاء والسهران بينما حظُّ الآخرين الوصل والإلتذاذ:

حظُّ غيري من وصلكم قرّة العيدِ      من وحظّي البكاء والتسهيدي

### المدرسة الرومنطيقية

ظهر مصطلح "الرومنطيقية" في النصف الثاني من القرن السابع عشر في الإنكلترا والفرنسة وكان يومئذ مصطلحاً سخرياً يطلق على كلِّ شيء "غير حقيقي" أو "عجيب" أو "خيالي" غارق

في الخيال" أو "الشعوري" (ولك، ١٣٧٣: ١٩). ثم أطلقت هذه التسمية على نهج جيل من الأدباء الذين ظهروا حوالي عام ١٨٢٠م بفرنسا الذين جدّدوا الأدب بلون من الكلام الوجداني الغنائي. واتخذت الرومنطيقية شكلاً حاداً عنيفاً فأعلنت "حرية الفن" وجاهرت بالعداء للأدب الكلاسيكي وحمل لواء الحرب الشاعر "فكتور هوغو" والناقد "سنت بيغ" (فيصل، ١٣٦٥: ٧٤٧). والمراد من "الحركة الرومنطيقية" كلّ شعر يريد الشاعر فيه التغمّي بالآلام والأفراح وسائر ما يعتلج فيه من الأحاسيس أو بعبارة أخرى، تصوير العاطفة كما تتردد في النفس. فنستطيع أن نقول أنّ مادة الأدب الرومنطقي حساسية الأديب وأحداث جرت له في الحياة وصدى هذه الأحداث. وبحكم هذه الثورة الرومنسية على الأوضاع السائدة في المجتمع من عسف وظلم وقهر، اتخذت الحركة منحى تصحيحياً لوضع المجتمع ومحاولة التخلص من الآفات التي سيطرت على هذا المجتمع وهو ما دفع شعراء الإتجاه الرومنسي إلى الانتفاضة العنيفة على الأوضاع الفاسدة السائدة (أبوالشباب، ١٩٨٨: ١٩٧). ولمّا لم يكن التغيير بإمكانهم وفشلوا في ثورتهم، شرع الشعراء يتغنّون بالأمهم وحزنهم.

أمّا ما هي ميزات الرومنطيقية؟ نأتي بالإختصار أهمّ خصائص هذه المدرسة، أولاً: الشعر عند الرومنسيين تعبير عن العواطف والوجدان عموماً والمذهب وجداني مئة بالمئة وقوامه عاطفة الأديب. فالأدب الرومنطقي أدب غنائي لأنّ أدبائه يتغنّون بأحاسيسهم حيال الطبيعة والموت والحب... على نحو شامل بحيث يجد القارئ فيها متعة ولذة ومن هنا أطلقوا على الأدب الرومنطقي بالعربية الأدب الغنائي كما أطلقوا عليه الأدب الوجداني. ثانياً: صبّ الخيال على مشاهد الطبيعة ومعالم الشعوب وعادات الماضي. ثالثاً: انطواء هذا المذهب على روح التمرد والكره للأوضاع القائمة والسنن الجارية وهذا طبيعي من أناس يقيمون وزناً لأنفسهم ويحترمون شعورهم (فيصل، ١٣٦٥: ٧٤٩-٧٥١).

إضافة إلى هذا قد عرف من الرومانتيكيين حبّهم للوحدة ورغبتهم في ترك المدن والفرار إلى الطبيعة بما فيها من حقول وبحار وجبال، بعيداً عن مشكلات المجتمع وهمومه وحروبه وفي الغالب كانوا يتناولون من الطبيعة مناظرها الكئيبة التي تتلاءم مع أحاسيسهم ومع حالاتهم ويتحدثون عن الذبول والمرض والفضاء وتلبّد السماء بالغيوم والقمر الشاحب والليالي المظلمة وغيرها من مظاهر الطبيعة. خلاصة القول؛ أنّ الرومنسية تعبير عن ذات الأديب ونوازعه وعوالمه الذاتية وليست محاكاة لعالم المثل، أو عالم الطبيعة أو تعبيراً عن المجتمع وقوانينه.

## الملاح الرومنسية في شعر ابن الرومي

بعد هذه المقدمات نشير إلى مظاهر رومنسية توجد في ديوان الشاعر بارزة وهي اللجوء إلى الطبيعة والإمتزاج بها والتشوق إليها والشعور بالأحزان والآلام والوحشة والإنفراد والتعبير عنها والحبّ والعاطفة الجياشة والتخييل ونأتي بكلّ منها بشيء من التفصيل.

الطبيعة والامتزاج بها والتشوق إليها:

لا يحب الرومانيون الطبيعة فحسب بل يعدونها صديقة لهم تشاركهم مشاركة روحية وقلبية ونفس الشاعر الرومنسي في صراعها مع الواقعية تعاني من البعد بين العالم الواقعي والعالم المنشود فلماذا تكون الدعوة إلى الطبيعة مسعى حثيث للإبتعاد عن هذا العالم (بلاطة، ١٩٦٠: ٥٦-٥٧). وفي الحقيقة ثورة على القيود والتقاليد والظلم. كان ابن الرومي قد أحبّ الطبيعة وعشقها كما عشق محبوبية (انظر: الحاوي، ١٩٥٩: ٣٤). ومنحها الحياة شأن الرومانيين، فهي عنده كائن حي يحبّها ويناجي معها ويلتجأ إليها، لما بلغت همومه وأحزانه في الحياة إلى ذروتها وتبرّم من الناس والمجتمع فنرى الشاعر نفسه يصرّح أيضا بأنّ الطبيعة عنده من الأشياء التي ينكشف بها الهموم ويسلو بها أحزانه قائلًا:

ثَلَاثَةُ أَشْيَاءَ بِهَا الْهَمُّ يَكْشَفُ      تَمِيلُ إِلَيْهَا النَّفْسُ مَنْيً وَتُصَرِّفُ  
شَرَابٌ وَيُسْتَانُ وَقَطْرٌ سَحَابَةٌ      إِذَا قَطَرَتْ أَنْوَاؤُهَا لَيْسَ تُخَلِّفُ

(ابن الرومي، ١٩٧٤: ١٦٢٦/٤)

والشاعر وجد في الطبيعة ملجئاً بعيداً عن الناس الذين يتبرّم منهم وليس هذا التبرّم وليد ظلم النَّاسِ عليه فحسب، بل له جذور أيضاً في نفسية الشاعر الذي ثقلت عليه الهموم والآلام التي أشرنا سابقاً إليها؛ فاللجوء إلى الطبيعة في شعره يتفاوت بقدر كبير عن الشعراء الآخرين «والواقع إننا نكاد لا نشهد شاعراً من شعراء العرب انصرف إلى وصف الطبيعة انصراف ابن الرومي وهذه الظاهرة ليست وليدة الصدفة والعرض، وإنما تنطوي على دلالة نفسية عميقة. فالشاعر بعد أن يئس من الحياة وفشل في اكتساب جاهها ومالها ورفعة شأنها وبعد أن توالى عليه النكبات توحّد وابتعد عن المجتمع كرهاً وتخلصاً من وطأته وتعقيده» (الحاوي، ١٩٨٦: ٢٣/١). ويشير أيضاً في مقطوعة أخرى إلى لجوئه إلى الطبيعة عندما زاحمته الهموم:

ومُونَقَّةِ الرُّوَادِ، مَهْتَزَّةِ الرَّبِيِّ      يحاسِنُهَا سَارٍ وَغَادٍ وَرَائِحُ  
تُضَاحِكُ نُورًا بِهَا زَهْرَاتُهَا      لها أَرْجٌ فِي نَافِحِ القَطْرِ نَافِحُ  
إِذَا مَدَّهَا المَهْمُومُ فِي صُعدَائِهِ      إلى قلبه انساحتَ عليه الجوانحُ

(ابن الرومي، ١٩٧٤: ٥٢١/٢)

فابن الرومي يصف في هذه الأبيات روضة يرتادها ذووالنعمة المترفون قائلًا إنَّ مطر الليل ومطر الصباح فضلًا عن مطر العشي، يحاسنها ويخصبها فتتمي أزهارها التي تتلألأ وتتألَّق فكأنَّها تضحك ويتضوُّع منها عطر يخالط رائحة المطر حتَّى أنَّها إذا ما أدركت أحشاء صاحب الهموم - ومن البديهي أنَّ هذا الهموم هو ابن الرومي ولا غير - ذاب وجدأً وتطيباً لها.

فقد تعرَّض الشاعر في قصيدة "غروب الشمس" مشهد صيد الطيور مع أصدقائه ويقول:

وَجَدَّتْ قَسِي القَوْمِ فِي الطَّيْرِ جَدَّهَا      فَظَلَّتْ سُجُودًا لِلرُّمَاءِ وَرُكْعًا  
هُنَالِكَ تَلَقَّى الطَّيْرُ مَا طَيْرَتْ بِهِ      عَلَى كُلِّ شَعْبٍ جَامِعٍ فَتَصَدَّعًا  
لَهَا عَوْلَةٌ أُولَى بِهَا مَا تُصِيبُهُ      وَأَجْدَرُ بِالِاعْوَالِ مَنْ كَانَ مَوْجِعًا  
وَمَا ذَاكَ إِلَّا زَجْرُهَا لِبِنَاتِهَا      مَخَافَةَ أَنْ يَذْهَبَ فِي الجَوْضِ ضِيْعًا

(ابن الرومي، ١٩٧٤: ١٤٧٤/٤)

يصف الشاعر في هذه الأبيات مشهد اصطياد الطيور بادئاً بذكر الصيادين الذين رموا بسهامهم الطيور ويشبّه سقوط الطيور بحالة الركوع والسجود فأصبحت شملة الطيور متفرقة ثم يتابع قوله بوصف أصوات هذه الطيور ويعبر عنها بالاعوال ويدعي أنَّ الطيور كانت تعمل لأفراخها حتى لا تقع الأفراخ في فخاخ الصيادين.

انتقل الشاعر في هذا النص الشعري من الوصف الخارجي إلى حالة نفسية داخلية فانقلبت رحلة الصيد عنده إلى مشهد فاجع ينقل إلينا رموزاً من المعاني الإنسانية في مثل قوله "تلقى الطير ما طيرت به" إشارة إلى فكرة التطير في بوارح الطير وتفرق الجمع لما فيها من نحس وشؤم وهذه فكرة طالما رافقت شاعرنا ابن الرومي أو في قوله "وأجدر بالاعوال من كان موجعا" مشيراً إلى مأساة إنسان ألت به المصائب، فالأقدار تفعل بالإنسان مثل ما يفعل الصائد بالطير أو في ما يقول "وما ذاك إلا زجرها لبناتها" فهذا كلام لا يقدر على الإتيان بمثله إلا من فجع بموت أولاده وهذا هو ابن الرومي بلا شك.

وابن الرومي ممن تعلّق بالطبيعة ووجد فيها بديلا عن المجتمع الفاسد بكلّ ما فيه أدران ويرى فيها مصدر الوحي ونقاء النفس واندماجه بها وليد فشله في المجتمع والنكبات التي توالت عليه في الحياة.

الوحشة والانفراد:

«إن ما أصاب ابن الرومي من تنكر مجتمعه والعمل على قهره وإعناته كان يمكن أن يدفعه إلى اعتزال الحياة والإنكباب على نفسه، كاتما آلامه» (سيفان، ١٩٨٣: ٤٤). فلهذا يفضل العزلة على مجالسة الأشرار والأحباب جميعا:

ذقتُ الطعومَ فما التذذتُ بِرِاحةٍ      مِنْ صُحبةِ الأخيّارِ والأشْرارِ  
أما الصّدِيقُ فلا أحبُّ لقاءَهُ      حدَرَ القلبي وكِراهةَ الإغوارِ  
وأرى العَدُوَّ قَدِى فَأُكرَهُ قَرْنَهُ      فَهَجرتُ هذا الخلقَ عَن أَعذارِ

(ابن الرومي، ١٩٧٤: ١٠٣٨/٣)

فيرى الزهد والإعتزال خيراً من معاشرّة الناس جميعا:

بلوتُ طعومَ الناسِ حتّى لو أنّني      وجدتُهُمُ أحلى مذاقاً مِنَ الشّهيدِ  
لقد آن أن أسلاهمُ وأملهُمُ      فكيفَ وما لاقيتُ منهمُ أخا رُشدِ  
وكيفَ وقد جربتُ من طبقاتهمُ      تجاريبَ تدعو النّفسَ فيهمُ إلى الزهدِ

(ابن الرومي، ١٩٧٤: ٦١٠/٢)

لأنّ الشعور السائد عند الرومانيكي نتيجة لرهف إحساسه بظلم المجتمع وقيوده هو ولوعه باعتزال الناس (هلال، لاتا: ٥٤) وعندما يرثى ولده يرى ابنه الميت ونفسه سيان في الوحشة والانفراد، قائلاً: «أنا في وحشة هذه الدنيا وأنت في وحشة القبر»:

وأنت وإن أفردت في دارٍ وحشةٍ      فإنّي بدارِ الأنسِ في وحشةِ الفردِ

(ابن الرومي، ١٩٧٤م: ٦٢٧/٢)

أمّا اندماج نفسه الوحيدة بالطبيعة والإمتزاج بها ورسم لوحات وجدانية وصفية عن نفسه الحزينة فواضحة في وصفه الطيور حيث يصوّر أصوات الحمامات المختلفة التي تتغني بين باكيات وشاديات:

تَدَاعِي بِهَا حَمَائِمُ شَتَّى      كَالْبَوَاكِي وَكَالْقِيَانِ الشَّوَادِي  
 مِنْ مَثَانٍ مُمْتَعَاتٍ قِرَانٍ      وَفِرَادٍ مُفَجَّعَاتٍ وَحَادٍ  
 تَتَغْنِي الْقِرَانَ مِنْهُنَّ فِي الْأَيِّ      كِ وَتَبْكِي الْفِرَادُ شَجْوَ الْفِرَادِ

(ابن الرومي، ١٩٧٤: ٦٨٣/٢-٦٨٤)

أما الشاديات فيتغنين لرفقائهن وأما الباكيات فمنفردات ليس لهن قرين وكأنما يبكين الإفراد وهذه الحمائم الفراد ليست إلا نفسه المكبوتة والشاعر تجاوز عن هذا المظهر العادي المتشابه وعلق عليه واقعا جديدا من واقعه الخاص، فجعل الفريدة من الحمائم تبكي انفرادها كما يبكي هو وحشته وجعل الحمائم القران تطرب وتنعم بالمتعة التي يتحسر عليها في انفراده. فمثل هذا القول قد تكرر في قصيدة أخرى وكلما سنحت للشاعر فرصة يفتنمها ويشكو من وحشته وانفراده بامتزاجه بالطبيعة فنرى غلبة جو حزين على القصيدة ينبع من نفسية ابن الرومي الحزينة وتبعد أشعاره عن الوصف المجرد للطبيعة وربما خرج كأنه أراد بهذه الأبيات التعبير عن مصائبه التي حلت به دون وصف الروضة والطائر ونراه واصفا في الأبيات التالية حماما وهدى وقفا على غصن شجرة:

يَدْعُو الْحَمَامُ بِهَا الْهَدِيلَ تَأْسِيًّا      وَتَبَارِيًّا فَوْقَ الْغُصُونِ الْمَيْسِ  
 فَمُفَجَّعُ خَلَجِ الْفِرَاقِ قَرِينَهُ      وَمَمْتَعٌ بِقَرِينِهِ لَمْ يِيَّاسِ  
 فَكَأَنَّ لَذَّةَ صَوْتِهِ وَدَيْبِيهَا      سِنَّةٌ تَمْشِي فِي مَفَاصِلِ نُعْسِ

(ابن الرومي، ١٩٧٤: ١٢٣٠/٣)

فقد وصف الشاعر مشهد الطيور في الطبيعة قائلاً إن الحمام على الغصون المائلة يدعو الهديل كأنه يريد أن يتأسي بها على همومه ثم يخيل في نفسه أن الطيور المفردة في الروضة تنقسم إلى قسمين: بعضها حمائم قران تطرب وتشدو وبعضها فراد تتألم وتبكي من الحزن لانفرادها؛ فتلك الأولى تتغني من الفرح وسط شملها غناء يأنس إليه ويرق له القلوب أما تلك الثانية فحزينة منفردة نلمس الحزن من صوته الخفيف الذي من الصعب أن يصل إلى الآذان. ثم يذكر الشاعر لنا أنه استأنس بهذا الصوت الحزين حيث يدب في عظامه ديب النوم في مفاصل من أخذه الكرى. من البديهي أن هدبل الحمائم لا يدل على البكاء ولا على الطرب، فهذا المعنى ينبع من نفسية الشاعر ويخيل أن الفريدة من هذه الحمائم تبكي من

انفرادها والقريفة منها تطرب وتفرح والشاعر يأنس بأصوات تلك الحمامم الحزينة بالطبيعة إذ وجد فيها لذة تسربت إلى عظامه فهو في الحقيقة بهذه الأبيات يصف نفسه وحالته في المجتمع الإنساني ويتحسر على ما افتقده في حياته وفي ذلك إنعكاس للحياة التي عاشها وحيدا بعد فقده لزوجته كما تحسر على أيام شبابه في البيت الأخير، التحسر على فقده علقاً نفيساً لا شيء يعادله.

الشعور بالحزن والألم والتعبير عنهما:

من الظروف المهيئة للنزعة الرومنسية عند ابن الرومي ذلك الحزن الذي تولد نتيجة للإحباط والفشل في بلوغه إلى أماله عند الممدوحين ولهذا نمت نبتة الحزن والتشاوم واليأس في شعره. وهذه النزعة الرومنسية تتدفق في ابداع الشاعر نغما حزينا وفكرا متشائما نتيجة المرارة والخيبة وإذا جال الحزن في نفس الشاعر بدت منه على الكون غشاوة والوجود كله مكتئب:

وَأظلمتِ الدُّنيا وِباخِ ضِياءِها      نهاراً وشمسُ الصُّحورِ حيرى على القِمامِ  
وأبدى اكتئاباً كلُّ شيءٍ علمته      وأضعافُ ما أبداهُ من ذاك ما كتم

(ابن الرومي، ١٩٧٤: ٢٣١١/٦)

لأن حيرة الشمس في الحقيقة حيرة ذات الشاعر وقد ارتسمت على محيا الشمس ثم عرف أنه هو الحزن الدخيل وليست الدنيا البادية للعيان هي التي يراها بتلك النظرة الشاحبة فقال:

كذلك أرى الأشياءَ إمّا حقيقةً      بدت لي وإمّا حلمٌ مستيقظٍ حلم

(ابن الرومي، ١٩٧٤: ٢٣١١/٦)

نعود مرة أخرى إلى قصيدة وصف غروب الشمس التي تعتبر من عيون القصائد العربية. قام الشاعر فيها بوصف رحلة مع أصدقائه في أحضان الطبيعة وفي مقطع من هذه القصيدة ينتقل إلى وصف شمس الأصيل وحزن الشاعر وألامه واضحة المعالم:

وقد رنقتِ شمسُ الأصيلِ ونقضتْ      على الأفقِ الغربيِّ ورساً مرعزعا  
وودعتِ الدُّنيا لتقضِّي نحبها      وشؤل باقي عمرها فتشعشعا  
ولاحظتِ النُّوارَ وهي مريضةً      وقد وضعتْ خدا إلى الأرضِ أضرعاً

كما لاحظت عواده عين مُدَنَّفٍ      تَوَجَّعَ مِنْ أَوْصَابِهِ مَا تَوَجَّعَا

(ابن الرومي، ١٩٧٤: ٤/١٤٧٣)

يصوّر الشاعر وداع الشمس للطبيعة ساعة الغروب وما ترسل من الشفق الأحمر الشبيه بنبات الورد وأشعتها تتبدّد إلا بقايا قليلة فهي توشك أن تلفظ أنفاسها الأخيرة مودّعة الدنيا وهي تنظر إلى الكون نظر المريض الذي أثقله الوجد إلى عواده وتضع خدها على الأرض إيذانا بالفراق وأما عيون الزهر المخضلة بالندى فقد أصبحت مغرورقة تدمع وترنو إلى الشمس بالحاظ خاشعة فكأنّ الزهر والشمس هما صديقان تودّعا وحزنا من الفراق.

إذا القينا الأضواء على خلفيات المعاني الوصفية في هذه المقطوعة رأينا أنّ الشاعر يسجّل مواقف إنسانية خاصة في أشعاره فهو يصف غروب الشمس وليس هذا الغروب عنده عادياً بل هو حالة الموت ووداع الدنيا فالشمس تضع خدها على الأرض وبهذا الوصف أعطى الشمس شعوراً إنسانياً كما أنّ الأزهار هي عواديها التي حزنت من فراقها وملئت عيونها بالدمع فهذا مشهد فراق الأحيّة وليس مشهد غروب الشمس والعبارات والأوصاف حزينّة ومن هنا خيم على القصيدة جو حزين.

وقد بقيت نكتة علينا أخذها بعين الاعتبار وهو أنّ ابن الرومي أقبل إلى الصيد والتفرّج فكان من المتوقع أن يذكر مثل هذه الرحلة بأشياء أخرى مثل الفرحة والخمر والنزهة ومنتعة السرور ولكن الأمر كان على العكس فهو لا يرى القطرات المنحدرة على الأزهار درراً منثورة شأن من سبقه من الشعراء بل يشبّهها بدمع العيون ويستدلّ بها على الأزهار الباكية:

وظَلَّتْ عُيُونُ النُّورِ تَخْضَلُ بِالنَّدَى      كَمَا اغْرَوْرَقَتْ عَيْنُ الشَّجِيِّ لِتَدَمَعَا

كما أنّ الشاعر قد خلق مشهداً جميلاً نفسانياً في البيت السادس حين يقوم بتصوير إنحناء الأزهار المائلة ويفسّر هذا الإنحناء نتيجة للحزن في فراق الشمس وبيث في النبات المشاعر الإنسانية:

يِرَاعِيْنُهُمَا صُورَا إِلَيْهَا رَوَانِيَا      وَيَلْحَظُنَّ الْحَاظَا مِنْ الشَّجْوِ خُشْعَا

وَبَيِّنَ إِغْضَاءَ الْفِرَاقِ عَلَيْهِمَا      كَأَنَّهُمَا خِلَا صَفَاءٍ تَوَدَّعَا

وجدير بالذكر أنّ التعبير عن هذه اللوعة ظهر مرّات عديدة في قصائده الوصفية الأخرى مثل هذه الأبيات التي اخترناها من قصيدة طويلة للشاعر:

تُذكرني الشَّبابَ جنانُ عَدنٍ      عَلى جَنَباتِ أنهارٍ عِذابِ  
يذكرني الشَّبابَ رياضُ حزنٍ      ترنُّمَ بَينَها زُرُقُ الدُّبابِ  
يذكرني الشَّبابَ وميضُ بَرِقٍ      وَسَجعُ حَمامَةٍ وَحَنينِ نَابِ

(ابن الرومي، ١٩٧٤: ٢٥٧/١)

والروضة والأنهار العذبة لا تثير في الشاعر بهجة ولا سروراً بل تذكره بالشباب المملوء بالحزن كما أن البرق وسجع الحمامة و... تثير في نفسه الحنين إلى أيام ذلك الشباب.

المرأة والحب:

يقرن الشاعر الرومنسي الحبَّ بكلِّ معاني السذاجة والبراءة والطهر والوفاء لكنَّهم بالغوا في رفع الحبيبة حتى بلغت مصافَّ الآلهة لدى بعضهم ونسبوا إليها صفات روحية كادت تنفي تجسدها في اللحم والدم واستعاروا أجمل ما في الطبيعة لوصف محاسنها. (بلاطة، ١٩٦٠م:

٦٤) والمعاناة في طلب المحبوب أصبحت هدفاً وغاية وكثيراً ما يجأ بالشكوى:

شكوتُ إلى بَدري هَوايَ فقالَ لي      أَلستَ تَرى بَدَرَ السَّماءِ الَّذي يَسري  
فَقُلْتُ بلى قالَ التَّمسَهُ فَإِنَّه      نَظيري وشِبهِي في عُلويِّ وفي قَدري  
فَكَانَ كِلا البَدَريينِ صَعِبا مَرامُهُ      لي الويلُ مِن بَدْرِ السَّماءِ وَمِن بَدري

(ابن الرومي، ١٩٧٤: ١١١٦/٣)

ومن أجمل القصائد التي تصوّر هيام الشاعر ولوعة حبّه، قصيدة "وحيد المغنّية" التي تجمع كثيراً من خصائص ابن الرومي في الغزل والنسيب والوصف والتحليل فهي من أجل ذلك وجدانية خالصة وتكشف عن كثير من نواحي خيبته في الحياة" (فروخ، ١٩٤٩: ٤١).

ويشبهها بالطيبة والقمرية لجمال عيونها وصوتها وكأنَّ الحسنَ أشعل ناره فيها:

أوقَدَ الحَسَنُ نارَه في وحيِدٍ      فوَقَ خَدُّ ما شانَه تَخديدُ  
ظليَّةٌ تَسكنُ القلوبَ وتَتر      عاهَا وقُمريَّةٌ لها تَغريدُ

(ابن الرومي، ١٩٧٤: ٧٦٣/٢)

والشاعر يعاني ممّا يكون الحبُّ أثقل عليه ويطلب من يعينه في حبه مثلما فعلت نفسه

للعشاق:

قَد كُنْتُ أَبْكِي لِأَصْحَابِ الْهَوَى زَمَنَا      فَهَلْ لِي الْآنَ مِنْ بَاكِ فَيَبْكِينِي  
أَهْكَذَا يَجِدُ الْعِشَاقُ كُلَّهُمْ      يَا رَحْمَتاً لِلْمُحِبِّينَ الْمَسَاكِينِ

(ابن الرومي، ١٩٧٤: ٢٥٤٧/٦)

إن الرومانسيين قد ارتفعوا بالحب إلى درجة التقديس والعبادة وارتفعوا به عن النزوات والدوافع الحسية وطبيعي أن تحتل المرأة مكانة رفيعة لديهم فصارت ملاكاً نزل من السماء لينقي النفوس ويطهرها (هلال، د.ت: ١٧٠-١٧١). ومن طريف قول الشاعر في الحب ما يريد فيه أن يمتزج روح العاشقين ولا يشفي غلته معانقة الجسمين وهذا يدل على عظم شأن الحب والمحبيب لدى الشاعر:

أَعَانَقْتُهَا وَالنَّفْسُ بَعْدَ مَشْوَقَةٍ      إِلَيْهَا وَهَلْ بَعْدَ الْغِنَاقِ تَدَانِي  
وَأَلْتَمُّ فَاهَا كَيْ تَمُوتَ حَزَازَتِي      فَيَشْتَدُّ مَا أَلْقَى مِنَ الْهَيْمَانِ  
وَمَا كَانَ مَقْدَارُ الَّذِي بِي مِنَ الْجَوَى      لِيَشْفِيهِ مَا تَرَشَّفُ الشُّفْتَانِ  
كَأَنَّ فُؤَادِي لَيْسَ يَشْفِي غَلِيْلَهُ      سِوَى أَنْ يَرَى الرُّوحَيْنِ يَمْتَزِجَانِ

(ابن الرومي، ١٩٧٤: ٢٤٧٥/٦)

وهكذا علّق على هذه الأبيات قائلاً «بيد أن هذا النوع من الغزل الصادق والحب المتيم يفسر المتعة الحسية المتجلبة صوفية الزاهدين المنجذبين إلى حبّ علوي ينأى بالجسد ويتصل بالجوهر الإنساني الطاهر الخالد، المنبثق في تعبير امتزاج الحبيين داخل وحدة روحية لا انفصام لها» (الحرّ، ١٩٩٢: ١٩٦).

ويتكرر نفس المعنى في قول آخر وما أشبه بقول الشعراء الصوفيين عندما يرى شفاء نفسه في امتزاج الروحين ويزداد شوقه عند رؤيتها، ويموت من أجلها لو ابتعدت عنه:

أَرَاهَا فَأَزْدَادُ شَوْقاً وَصَبُوءَةً      وَإِنْ نَزَحَتْ فَالْمَوْتُ دُونَ نَزْوِحِهَا  
فَلَيْسَ شِفَاءُ النَّفْسِ مِمَّا أَحَبَّهُ      لِعِضْرَاءَ إِلَّا لَزُّ رُوحِي بِرُوحِهَا

(ابن الرومي، ١٩٧٤: ٥٤٠/٢)

وفي سياق آخر، امتزج الشاعر بين مظاهر الطبيعة والمرأة امتزاجاً يصور لنا لواجح قلبه الذي عاش منفرداً معوزاً بين هؤلاء الموسرين وجواريتهم بيغداد ولم تسمح له دميمة وجهه من

جانب وفقره من جانب آخر، حتى يشبع نهمته مما يرى أمام عينيه لأن الشاعر كان يعيش في وسط مجتمع عباسي فيه ما فيه من الجاربات والمطربات والقاتنات، لكنّه يبدو في عوزه وتهالك صحته وكأنّه يعجز عن تحقيق أمنيته بهن، وظلت المرأة ظمأً دائماً في نفسه لم يستطع إرواءه، حتى إذا برّحت به الأشواق تحوّلت تلك الحسرة إلى الطبيعة فالتبست فيها، لذلك عمد إلى مناجاة الطبيعة يتودّد إليها ويبثّها أشواقه وحنينه ولواعج قلبه المتيمم» (كاظم حطيط، ١٩٨٧: ٢٩٢). وهذا الذي نراه في وصف الطبيعة عند ابن الرومي ليس في الواقع سوى تحوّل نفسي لفتاة الحب في ذاته العاشقة وهكذا يصف الشاعر المرأة مستمداً في التشابيه والإستعارات من أوصاف الطبيعة ويستخدم هذا الأوصاف إستخداماً يصعب على القارئ التمييز بين موضوع الأشعار فهل كانت قصائد الشاعر في وصف المرأة أم وصف لمشهد في الطبيعة:

رُمانٌ عَدنٌ وأَعناباً مُهدّلةً      وأَقحواناً يُسقيّ الراحَ رفاقاً  
ويانعاً مِن جَنِي العُنابِ يَتبعُه      قلبُ المودعِ تَذكاراً وتأسافاً  
أسرى بأنواعِ ريحانٍ وفاكهةٍ      يَأبينَ قَطفاً وإن خُيلنَ إقطافاً

(ابن الرومي، ١٩٧٤: ٤/١٦٠٠)

والشاعر سلك مسلك القدامى في هذه التشابيه والإستعارات ولكن قد زين هذه التشابيه بمصطلحات جديدة مثل "يأبين قطفاً" فهذا المصطلح يخبرنا عن لوعة الشاعر للنساء وقد ذكرنا لكم سابقاً أن دميمة وجه الشاعر وهزاله و...، كل هذه الخصائص الجسمانية جعلت النساء ينبذن ابن الرومي ولعل حسرة الشاعر على عدم وصوله للنساء بلغ إلى ذروتها بحيث يتبع قلب الشاعر الذي ودّعته الحسنات الذكريات ويذكرهنّ ويأسف لفقدهنّ.

ومن ملاحج الإمتزاج بين الطبيعة والمرأة كثيرة وتتردّد في غير مكان من ديوان الشاعر وواضح مما قدمنا إن الإمتزاج بين الطبيعة والمرأة عند الشاعر يعود في كثير من جوانبه إلى شخصية الشاعر إذ يئس من المجتمع - وأيضاً من الوصول إلى أماله - فتحول إلى الطبيعة يشكو إليها وعلى هذه الشاكلة اقترن وصف الطبيعة عند ابن الرومي بوصف المرأة ولكن هذا الوصف يختلف عما قرأناه عند الشعراء الآخرين؛ إذ ليس فيه كلام عن اللهو واللعب والتمتع بل يركز الشاعر الحديث على التأسف والفشل.

في قصيدة أخرى قد بدأ الشاعر بأسلوب التجريد واستعار الفاظ الطبيعة للنساء: أغصان الأشجار للقدود والتفاح للحدود... وشبّه أيضاً الشعور المسترسلة بالأعنان المهدّلة في لونها

الأسود كما شبه أطراف أصابعها بالعناب في الإحمرار فهي تشبه غصوناً قد ظهرت عليها الثمار المختلفة ولكنها تختلف عن ثمار الأشجار فهي ليست في أكمته زهرات وأنوار بل فيها الفرح والمتعة أو الحزن والبؤس:

أَجَنَّتْ لَكَ الْوَجْدَ أَغْصَانٌ وَكُثْبَانٌ      فِيهِنَّ نَوْعَانِ تَفَّاحٌ وَرُمَّانٌ  
وَفَوْقَ ذِينَكَ أَعْنَابٌ مُهَدَّلَةٌ      سُودٌ لَهْنٍ مِنَ الظُّلْمَاءِ أَلْوَانٌ  
وَتَحْتَ هَاتِيكَ أَعْنَابٌ تَلْوَعُ بِهِ      أَطْرَافُهُنَّ قُلُوبُ الْقَوْمِ قَبَانٌ  
غُصُونٌ بَانَ عَلَيْهَا الدَّهْرَ فَاكْهَةٌ      وَمَا الْفَوَاكِهِ مِمَّا يَحْمِلُ الْبَانَ  
تِلْكَ الْغُصُونُ اللَّوَاتِي فِي أَكْمَتِهَا      نَعْمٌ وَبُؤْسٌ وَأَفْرَاحٌ وَأَحْزَانٌ

(ابن الرومي، ١٩٧٤: ٢٤١٨/٦)

يكفي لنا أن نتأمل في بعض المصطلحات التي نقرأها في هذه الأبيات حتى ندرك موقف ابن الرومي من النساء؛ فإنه حريص على وصول النساء وبه ظمناً شديداً لهن وهذا ما نفهمه من قوله "أطرافهن قلوب القوم قبوان" فلا شك في أن لفظ "القوم" هو ابن الرومي نفسه ولاغير فصور تغلغله النفسي يمثل هذه القصائد « ومن أسباب اندفاعه إلى الطبيعة هي التنفيس عن آلامه وضيقه وبديل عن المجتمع الفاسد واعتبارها هي المرأة التي افتقدها والحنين إلى الصدق والطهارة والبساطة» (كبريت، ٢٠٠١: ١٨). ويرى الأرض المزيّنة كفتاة تتبختر في ثيابها الفاخرة:

وَرِيَاضٍ تَخَايَلُ الْأَرْضُ فِيهَا      خُيَلَاءُ الْفَتَاةِ فِي الْأَبْرَادِ

(ابن الرومي، ١٩٧٤: ٦٨٣/٢)

الطبيعة شديدة الصلة بالحب عند الشاعر الرومنطقي، فهي ملاذ الشاعر البائس. لقد امتزجت نفسية ابن الرومي بنفسية الطبيعة فلقى بين أحضانها كل ما حرمته الحياة إياه، إن عالم الطبيعة في شرعه هو عالم الإنسان لذلك كان يضيف عليه حالاته الداخلية ويحملة ما يزخر به وجدانه من انفعالات (روشنفكر، ١٣٨٩: ٧٢). ونرى كيف وجد حبه في حضن الطبيعة وأعطاهها شعوراً إنسانياً.

بغض النظر عن الجمال الوصفي في الأبيات وتلك المزاوجة الجميلة بين الألفاظ والصور النفسية، نستبسط بالوضوح أن المعنى الشعري في هذه الأبيات تبدي لنا أن فكرة ابن الرومي

حول المرأة فقد ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بشعره في وصف الطبيعة وحينما نتأمل قليلاً نجد أن هناك نوعاً من العلائق النفسانية الوجدانية غلب على هذه الفكرة وهي وجدانية انسان قانط قد فشل في آماله فأينما يتوجّه لم يلبث حتى مرّت بذهنه فالشاعر كان ينظر إلى النساء - وأيضاً إلى الطبيعة - بنافاذة واحدة ولعل هذا هو سرّ التماثل بين الطبيعة والنساء عند ابن الرومي و«الوجدانية تنصهر وأحاسيس ابن الرومي في قلب الطبيعة وكان إذا لجأ إليها بأشجانة وهمومه وأحزانه، تستجيب له وتبادلته الأشجان بالجداول المتفجرة والهجوم بالسواقي الملتوية وهذه الرومنطيقية المبكرة في شعره هي التي ظهرت عند الرومنطيقين الغربيين أمثال "كيتس" و"ورد رورت" و"روسو" وبين كل هذا يجد ضالته المنشودة على شكل فتاة ارتدت الغلائل المشاة أو على شكل عشيقة تزينت وتبرجت للقاء عشيقها كيما تغويه (الحر، ١٩٩٢: ٩٨-١٠١).

#### التخييل

كان التخييل عند الرومنسيين ذا قيمة بالغة وذا شأن كبير بحيث يعدّ ركناً لا يستطيع الشاعر أن يقول شعراً دونه (باوره، ١٣٧٣: ٥٦). ويقال إن القطعة الشعرية لها حقيقة رمزية، لا حقيقة إخبارية وما يخلقه التخييل، يرتبط بتجربة الشاعر الشعرية الحية وينعكس الحقائق الوجدانية (باوره، ١٣٧٣: ٦٠). يعتقد "بليك" الشاعر الإنجليزي بأن التخييل هو الذي يخلق الواقعية (باوره، ١٣٧٣: ٧١). ويؤكد "شلي" على أنّ وظيفة التخييل، خلق الأشكال والتصاوير التي تظهر الواقعية من خلالها (باوره، ١٣٧٣: ٧٥). ومن هنا نفهم شأن التخييل عند الرومنسيين وإذا قارنا ما عند ابن الرومي من التخييلات التي توضح لنا نفسية الشاعر وواقعية حياته ندرك مدى رومنسية الشاعر العباسي.

ونستفيد ممّا أتينا بنماذج أنفا ونحللها ثانية لنبيّن سعة خيال الشاعر. أراد ابن الرومي في واقعه أين يلتقي بفتاة حبه وهي مزيّنة متبرّجة له ولكن كما قلنا سابقاً إنّ النساء يطردنه ويرفضن حبه ولهذا حلّ الخيال محلّ الواقع فيرى حبيبته متبخّرة في الألبسة القشبية:

ورِياضٍ تَخَايَلُ الأَرْضُ فِيهَا      خُيلاءِ الفتاةِ فِي الأَبْرادِ

أو يراها ممثلة في الأرض بمختلف ألوانها في فصل الربيع، ويذكره هذا المشهد الربيعي بعد زوال الشتاء بحبيبة تبرّجت وزيّنت نفسها لفتاها معرضة عنها:

تبرّجت بعد حياءٍ وحَقَر      تبرّج الأنثى تصدّت للذكّر

(ابن الرومي، ١٩٧٤: ٩٩٣/٣)

كانت نتيجة طبيعية لانطواء الرومنتيكي على نفسه وطفيان شعوره وعاطفته أن يضيق ذرعا بعالم الحقيقة فيطلق لنفسه العنان في الأحلام ووجد في هذا الإنطلاق اشباعاً لآماله غير المحدودة فصار عالم خياله أحب إليه من عالم الحقيقة المحدود (هلال، د.ت: ٦٤). وما أجمل انطلاقه في خياله عندما يرى نفسه الوحيدة الحزينة في حمام وحيد يبكي لفقد حبيبته وقد شرحت الأبيات سابقاً:

تَدَاعِي بِهَا حَمَائِمُ شَتَى كَالْبَوَاكِي وَكَالْقِيَانِ الشُّوَادِي  
مِنْ مَثَانٍ مُمْتَعَاتٍ قِرَانٍ وَفِرَادٍ مُفَجَّعَاتٍ وَحَادٍ  
تَتَغْنِي الْقِرَانَ مِنْهُنَّ فِي الْأَيِّ — كَ وَتَبْكِي الْفِرَادُ شَجْوَ الْفِرَادِ

والشاعر يتحسّر على الحمائم الممتعات بقربنهنّ ويتمنّي أن تكون نفسه إحداهنّ. كان واسع الخيال، قويّ الشعور وله قدرة كبيرة على التعبير عن الأحاسيس والمشاعر وهكذا وصفوه بأنه «كان قويّ الخيال جداً وكان خياله بعيداً ليس بالقريب، وكان حادّ الحسّ جداً. وكان قويّ الشعور، كان إذا لمّ بمعنى من المعاني تأثّر به تأثراً واضحاً» (حسين، ١٩٧١: ٣٧٨/٢). وهكذا فالخيال في اتجاهاته المختلفة استعاضة عما يريد الرومنتيكيون الحصول عليه حقيقة (هلال، د.ت: ٦٤).

ولكن لا يلبث الشاعر الرومنتيكي أن يفيق من حلمه على الحقيقة فيشعر بلذعة هذه اليقظة كأنه يفقد أمله من جديد كلّما رجع من خياله ويتضاعف الشعور بالألم كلما استغرق في خياله. فلنعد مرةً أخرى إلى قصيدة ذكرناها سابقاً وقد استعار الشاعر مظاهر الطبيعة لفتاته وامتزج بين الطبيعة ومحاسن الحبيبة ولكن في مواصلة خياله كأنه استيقظ منه، نراه واصفاً النساء بالغدور والخيانة بعد أن شبّهنّ بالأشياء الموجودة في الطبيعة وهن عنده كالبساتين: تكتسي ألواناً من الزهر حين الوعود ثم يعري حيناً آخر:

تلك الغصون اللواتي في أكمّتها نُعَمُّ وَبُؤْسٌ وَأَفْرَاحٌ وَأَحْزَانُ  
ولا يدمن على عهدٍ لمعتقدٍ أَنِّي وَهْنٌ كَمَا شُبِّهْنَ بَسْتَانُ  
يميلُ طوراً بحمّلٍ ثم يعدمهُ وَيَكْتَسِي ثَمَّ يَلْفِي وَهُوَ عَرِيَانُ  
حالاً فحالاً كذا النسوان قاطبةً نَوَاكِثٌ دِينَهْنَ الدَّهْرَ أَدِيَانُ

(ابن الرومي، ١٩٧٤: ٢٤١٨/٦)

## النتائج

يمكن لنا أن نلخص نتائج البحث فيما يلي:

- ليست ظاهرة الرومنسية ظاهرة جديدة على الأدب العربي وهذه المدرسة الحديثة لها آثارها الواضحة في التراث العربي القديم وإن كانت التسمية جديدة.
- من أبرز ملامح الرومنسية في شعر ابن الرومي لجوئه إلى الطبيعة والإمتزاج بها والتشوق إليها وبث شكواه عند اشتداد الأحزان والهموم؛ فهو في هذه القصائد أشبه بالرومنسيين الكبار الجدد.
- الظروف الاجتماعية التي حدثت ابن الرومي إلى الشعر الرومنسي هي في الغالب نفس الظروف التي كانت سائدة على مجتمع الرومانسيين الجدد مثل الفشل في الحب، والفرار عن عسف المجتمع.
- إن ابن الرومي عند وصفه للطبيعة في الحقيقة يصف نفسه وحالته في المجتمع الإنساني ويتحسر على ما افتقده في حياته وفي ذلك إنعكاس للحياة التي عاشها وحيدا بعد فقد زوجته.
- من الظروف المهيئة للنزعة الرومنسية عند ابن الرومي ذلك الحزن الذي تولد نتيجة للإحباط والفشل في بلوغه إلى آماله عند الممدوحين ولهذا نمت نبتة الحزن والتشاوم واليأس في شعره. وهذه النزعة الرومنسية تتدفق في ابداع الشاعر نغما حزينا وفكرا متشائما نتيجة المرارة والخيبة.
- التخيل - باعتباره أقوى ما يكون عند الرومنسيين - قوي عند الشاعر ولا يقل درجة عما يكون عند الرومنسيين المعاصرين. وإذا قارنا ما عند ابن الرومي من التخيلات التي توضح لنا نفسية الشاعر وواقعية حياته ندرك مدى رومنسية الشاعر العبّاسي.
- إن الشعر العربي القديم بحاجة ماسة إلى قراءات جديدة تواكب هذا الشعر مع المعطيات النقدية الجديدة مادام لم تخرج هذه القراءات عن جادة الصواب.

## المصادر والمراجع

١. ابن الرومي، علي بن العباس (١٩٧٤م). *الديوان*. تحقيق حسين نصار، بيروت: دار الكتاب اللبناني.
٢. ابن خلكان، أحمد بن محمد (١٩٧٠م). *وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان*. تحقيق إحسان عباس، ج٣، بيروت: دار صادر.
٣. أبوالشباب، واصف (١٩٨٨م). *القديم والجديد في الشعر العربي الحديث*. بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر.
٤. ايمانين، حسين؛ شامل، نصر الله؛ ايرواني زاده، عبدالغني (١٣٨٩). *جامعه آرماني در مدائح؛ با نگاهي به مدائح ابن الرومي*. مجله انجمن ايراني زبان وادبيات عربي، العدد ١٧، صص ١٥٩-١٨٣.
٥. باوره، موريس (١٣٧٣هـ). *تخيّل رمانتيك*. ترجمة فرشيد شيرازيان، مجلة ارغنون، العدد ٢، صص ٧٨-٥٥.
٦. بلاطة، يوسف عيسى (١٩٦٠م). *الرومنطيقية ومعالمها في الشعر العربي الحديث*. بيروت: دار الثقافة.
٧. الحاوي، إيليا (١٩٥٩م). *ابن الرومي: فنّه ونفسيّته من خلال شعره*. بيروت: مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني.
٨. \_\_\_\_\_ (١٩٩٨م). *الرومنسية في الشعر الغربي والعربي*. ط٣، بيروت: دار الثقافة.
٩. حسين، طه (١٩٧١م). *من تاريخ الأدب العربي*. ج٢، بيروت: دار العلم للملايين.
١٠. الحرّ، عبدالمجيد (١٩٩٢م). *ابن الرومي، عصره، حياته، نفسيّته، فنّه من خلال شعره*. بيروت: دار الكتب العلمية.
١١. حطيط، كاظم (١٩٨٧م). *أعلام ورّواد في الأدب العربي*. بيروت: الشركة العالمية للكتاب.
١٢. روشنفكر، كبرى؛ رحمت الله پاشا زانوسي (١٣٨٩هـ). *الطبيعة الحية في شعر ابن الرومي*. مجلة العلوم الإنسانية، العدد ١٣، صص ٧١-٨٤.
١٣. سعيان، كامل (١٩٨٣م). *قراءة في ديوان ابن الرومي*. القاهرة: دار المعارف.
١٤. عباس، إحسان (١٩٥٥م). *فن الشعر*. ط٣، بيروت: دار الثقافة.
١٥. عصفور، جابر (١٩٩١م). *قراءة التراث النقدي*. القاهرة: مؤسسة عيبال للدراسة والنشر.

١٦. العقاد، عباس محمود (٢٠٠٩م). ابن الرومي حياته من شعره. ط٢، القاهرة: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.
١٧. فروخ، عمر (١٩٤٩م). ابن الرومي، عليّ بن العباس بن جريح (دراسات قصيرة في الأدب والتأريخ والفلسفة). ط٢، بيروت: دار الكشاف.
١٨. فيصل، محمد روجي (١٣٦٥هـ). المدرسة الرومنطيقية نشأتها وخصائصها ومكانها بين المدارس الأدبية. مجلة الكتاب، السنة الأولى، الجزء ١١، صص ٧٤١-٧٥٢.
١٩. كبريت، سمير محمد (٢٠٠١م). روائع الشعر العربي (ابن الرومي). بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع.
٢٠. هلال، محمد غنيمي (دون تا). الرومنتيكية. القاهرة: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.
٢١. ولك، رنه (١٣٧٣هـ). رمانتيسم در ادبيات. ترجمة اميرحسين رنجبر، مجله ارغنون، العدد ٢، صص ١٩-٤٦.